الإهــــداء

إلى الشباب العربى والشباب
المسلم فى كل زمان ومكان..

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

عن المفهوم الإسلامى للحرية: أسباب الازدهار وعوامل الانكسار

الحرية : ضد العبودية.. والحر: ضد العبد والرقيق.. وتحرير الرقبة : عتقها من الرق والعبودية..

فالحرية : هى الإباحة التى تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته، فى أى ميدان من ميادين الفعل، وبأى لون من ألوان التعبير.

وفى المصطلح القرآنى، الذى يقابل بين الحر والعبد: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ – البقرة:١٧٨.

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الراشد الثانى عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ – ٢٣هـ ٥٨٤–٦٤٤م) التى يقول فيها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟!

ولقد كان مبحث الحرية والاختيار أول المباحث التى بدأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى، بعد ظهور الإسلام – حول منتصف القرن الهجرى الأول – ولقد دلت ملابسات هذه النشأة على ارتباط «الحرية» «بالمسئولية» فى النظرة الإسلامية، لأن القضية التى أثارت الجدل فولدت البحث فى هذه القضية هى التغييرات التى أحدثتها الدولة الأموية فى نظام الحكم الإسلامى، والتى انتقلت به من الشورى والخلافة الكاملة إلى الخلافة الناقصة والملك العضود، ومن الصراعات الفكرية والسياسية التى حدثت بين المسلمين حول هذه التغييرات.. وهل القائمون بها مسئولون عنها، يحاسبون عليها، فهم أحرار مختارون؟.. أم أنهم غير مسئولين، كليا أو جزئيا، أو لا حساب عليهم، لأنهم مسيرون مجبرون؟

وإذا كان «التكليف» – وهو عنوان المسئولية فى القانون والفقه الإسلامى – فرعا عن «الحرية».. فلقد تجاوزت الحرية – فى النظرة الإسلامية – نطاق الفرد – الحرية الفردية – إلى النطاق الاجتماعى – الحرية الاجتماعية – للأمم والجماعات.. ففى

التكليف الإسلامى «فروض عينية» على «الفرد» تستلزم حرية هذا الفرد المكلف.. وفيها، كذلك «فروض كفائية» - أى اجتماعية - تجب على الأمة والجماعة.. وتستلزم حرية اجتماعية للأمة والجماعة.. الأمر الذى يقطع بتجاوز نطاق الحرية - فى النظرة الإسلامية منذ البدء - نطاق الفرد إلى الجماعة والاجتماع.. على عكس ما يظن الذين حسبوا مبحث الحرية والاختيار «فرديا - دينيا» لم يتجاوز هذا الإطار!.. فإذا كانت التكاليف الفردية - الواجبة على الفرد، وهى فروض العين - تستلزم حرية المكلف بها، فإن التكاليف الاجتماعية - الواجبة على الأمة، وهى فروض الكفاية- تستلزم حرية الأمة المكلفة بها، بل إن هذه التكاليف الاجتماعية - فى النظرة الإسلامية - هى أشد توكيدا من الفروض العينية الفردية، بدليل أن التخلف عن «فرض العين» إنما يقع إثمه على الفرد، بينما التخلف عن فرض الكفاية الاجتماعى يلحق إثمه بالأمة جمعاء.. الأمر الذى يوحى أن حرية الأمة هى الأساس فى الحرية الفردية لآحاد هذه الأمة.

ونظرة الإسلام إلى الحرية، ومن ثم مقامها ومكانتها فيه، نظرة متميزة خاصة إذا كانت المقارنة مستحضرة نظرة الحضارة الغربية وبعض الحضارات الشرقية القديمة إلى هذا الموضوع.

● فالحرية فى النظرة الإسلامية، ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعى واجب.. وليست مجرد «حق» من الحقوق، يجوز لصاحبه أن يتنازل عنه إن هو أراد!.

● ومقام «الحرية» يبلغ فى الأهمية وسلم الأولويات، مقام «الحياة» التى هى نقطة البدء والمنتهى، وجماع علاقة الإنسان بوجوده الدنيوى.. لقد اعتبر الإسلام «الرق» بمثابة «الموت» واعتبر «الحرية» إحياء «وحياة».. فعتق الرقبة، أى تحرير العبد: هو إخراج له من الموت الحتمى إلى حكم الحياة.. وهذا هو الذى جعل عتق الرقبة - إحياءها - كفارة للقتل الخطأ الذى أخرج به القاتل نفسا من إطار الأحياء إلى عداد الموتى - فكان عليه كفارة عن ذلك، أن يعيد الحياة إلى الرقيق بالعتق والتحرير: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ النساء: ٩٢ -.. وبعبارة واحد من مفسرى القرآن الكريم - الإمام النسفى (٧١٠هـ ١٣١٠م) -: «فإنه (أى القاتل) - لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكما» (٤٧:ج١ ص١٨٩)

وفى الآية ١٢٢ من سـورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ فالإسلام عندما يهدى إنما يحرر الإنسان من عبودية الطواغيت، وعندما يحرر فإنه يحقق للإنسان ضرورة الحرية المحققـة لمعنــى «الحياة» وحقيقة الحياة.. ومن هنا كانت شـهادة أن لا إله إلا الله عنوان الحرية التى تحرر كل ملكات الإنسان وطاقاته من العبودية لكل الطواغيت، فإفراد الذات الإلهية بالعبودية هو قمة التحرير لعباد الله!

وكلمات الإمام النسفى التى تقول: «إذ الرق أثر من آثار الكفر»، تلفت النظر إلى الموقف العملى الذى اتخذه الإسلام، إبان ظهوره من نظام الرق وواقع الاسترقاق.

لقد ظهر الإسـلام ونظام الرق – فى شـبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها – نظام عام وراسـخ وبالغ القسوة، ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادى والاجتماعى لعالم ذلك التاريـخ، وفـى كل الحضارات.. وإذا نظرنـا إلى المحيط الذى ظهر فيه الإسـلام وجدنا الروافد والمنابع المتعددة دائمة الإمداد «لنهر الرقيق» الزاخر بالجديد من الأرقاء.. فالحروب العدوانيـة.. والغارات الدائمة.. والفقر المدقع.. والعجز عن سـداد الدين.. والحرابة وقطع الطريق، وأسـواق النخاسـة التى تعج بالصغار المجلوبين – فتيان وفتيات – والتى تمثل مصدرا من مصادر الاستثمار فى الرقيق– كانت من المعالم الأساسية لكل المجتمعات، حتى لا نغالى إذا قلنا: إن الرقيق كان «العملة الدولية» لاقتصاد ذلك التاريخ!.. ولقد بلغ من قسوتها وشيوعها ما صنعته القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية – القوى العظمى يومئذ – من تحويل كل شعوب المستعمرات إلى رقيق وبرابرة وأقنان!.

فلما جاء الإسـلام، وقامت دولته بالمدينة المنورة، حرم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد «نهر الرقيق» بالجديد.. ووسـع المصبات التــى تجفف هذا النهر، وذلك عندما حبب إلى الناس عتق الأرقاء، بل وجعله مصرفا من مصارف الأموال الإسلامية العامة، وصدقات المسـلمين وزكواتهم.. وعندما جعل العديد من الكفارات هى تحرير الرقبة.. وعندما سـن شـرائع المساواة بين الرقيق ومالكه وسـيده، فى المطعم والمشرب والملبس.. ودعا إلى حسن معاملته والتخفيف عنه فى الأعمال.. حتى لقد أصبح الاسترقاق – فى ظل هذه التشريعات – عبئا اقتصاديا يزهد فيه الراغبون فى الثراء!..

فلم يكن موقف الإسلام من «الحرية» وعداؤه «للعبودية» مجرد موقف «فكرى – نظرى» وإنما تجسـد على أرض الواقع تجربة «إصلاحية – ثورية» شـاملة غيرت المجتمع الذى

ظهر فيه تغييرا جذريا – وذلك هو الذى يحسب للإسلام، ولا تحسب عليه «الردة» التى حدثت عندما استشرى الاسترقاق فى فترات لاحقة من التاريخ!.

لقد وقف التشريع الإسلامى من الاسترقاق عند أسرى الحرب المشروعة، ليبادلهم مع أسرى المسلمين بل وشرع لهذه الحالات المحدودة العدد «المن» و «الفداء»: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ – محمد: ٤. (٤٨: الرق، ص٤٧٤ – ٤٧٩)

وإذا كان هذا هو مقام الحرية فى النظرة الإسلامية، فإن هذه النظرة قد ربطت قيمة الحرية بالإنسان، مطلق الإنسان، وليس بالإنسان المسلم وحده.. وإذا كان الدين والتدين هو أغلى وأول ما يميز الإنسان، فإن تقرير الإسلام لحرية الضمير فى الاعتقاد الدينى لشاهد على تقديس حرية الإنسان فى كل الميادين.. فهو حر حتى فى أن يكفر، إذا كان الكفر هو خياره واختياره: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة: ٢٥٦– ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ – هود: ٢٨ – ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ – يونس: ٩٩.

لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان، لكنه – سبحانه – جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية، الحرية والتخيير والتمكين، فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية فى كل الميادين..

وإذا كانت شهادة التوحيد – «لا إله إلا الله» – هى جوهر التدين بالإسلام، فإنها فى مفهومه، ثورة تحرير للإنسان من العبودية لكل الطواغيت، ومن جميع الأغيار، فإفراد الله بالألوهية والعبودية هو جوهر تحرير الإنسان من العبودية لغير الله. إنها العبودية للذات المنزهة عن المادة.. ومن ثم فإنها هى المحققة لتحرير الإنسان من كل ألوان الطواغيت المادية التى تستلب منه الإرادة والحرية والاختيار.

بل إن الإسلام – عندما يدعو الإنسان إلى الاقتصاد فى الاقتناء والامتلاك – بتهذيبه لشهوات التملك وغرائزه وبالوقوف بها عند حدود «الاستخلاف» و «الانتفاع» لا «ملكية الرقبة» و«الاحتكار». – بصنيعه هذا إنما ينجز إنجازا عظيما على درب تحرير الإنسان وانعتاقه من العبودية للأشياء، التى يحسبها مملوكة له، على حين أنه لها مملوك!

لكن للإنســـان مذهب متميـــز فى «نطاق» الحرية الإنســـانية و«آفاقهـــا» و«حدودها»".. فالإنســـان خليفـــة لله – ســـبحانه – فى عمـــارة الوجود، ومن ثم فـــإن حريته هى حرية الخليفة، وليســـت حرية ســـيد هذا الوجود.. أنه ســـيد فى هذا الوجود، وليس سيد لهذا الوجود.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ – ١٩٠٥م):

«..فالإنسان عبد لله وحده وسيد كل شىء بعده»..

ثم إنه حر، فى إطار الملابســـات والعوامل الموضوعية الخارجية التى ليست من صنعه، والتى قد يســـتعصى عليه تعديل بعضها أو تحويرها وتغييرها.. وهو حر فى إطار أشـــواقه ورغباته وميوله، التى قد لا تكون دائما وأبدا ثمرات حرة وخالصة لحريته وإرادته الخالصة، وإنما قد تكون – أحيانا – ثمرات لمحيط لم يصنعه، ولموروث ما كان له إلا أن يتلقاه.

ثم إنه «الخليفة.. والوكيل: الحر»، فى إطار ونطاق ثوابت ومقاصد الشـــريعة التى هى عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل.. فحرية الإنسان الخليفة ليست الحرية الليبرالية الغربية، التى ادعت أن الإنســـان هو سيد الكون، وأن حريته الشخصية – من ثم – لا تخضع لأية قيود.. وعندما وفد هذا المفهوم الليبرالى الغربى فى الحرية إلى بلادنا – فى القرن التاســـع عشر، والقائم «على الإباحة» وعدم التعرض لأحد فى أموره الخاصة – انتقده علماء الإسلام انتقادا شديدا.. وكتب الأستاذ عبد الله النديم (١٢٦١ – ١٣١٣هـ ١٨٤٥ – ١٨٩٦م) فقال:

«.. ولئـــن قيـــل: إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد فـــى أموره الخاصة، قلنا: إن الحريـــة عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.. وهذا الذى نســـمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنســـانية، ولئن كان ذلك ســـائغا فى أوربا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناســـب أخلاق المســـلمين ولا قواعدهم الدينيـــة ولا عاداتهـــم. والقانون الحق هو الحافظ لحقـــوق الأمة من غير أن يجنى أو يغرى بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها». (٤٩: ص ٤٣٩)

وإذا كان الله – ســـبحانه وتعالى – قد ســـخر للإنســـان ظواهر الطبيعة وقواها ليتحرر من العبودية لها: فإنه قد أقام، وأراد إخاء بين قوى الإنســـان وقوى الطبيعة – الخليقة– لتمتزج حريته بهذا التســـخير المتبادل، فهو أخ للطبيعة، بين قواه وقواها تسخير متبادل، هو أشـــبه مايكون بالارتفاق، كل مرفق مســـخر للمرفق الآخر، الأمـــر الذى يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق المسئول، لا حرية الذى لا يسأل عما يفعل.. الفعال لما يريد!.

هكـذا جـاء الإسـلام لـ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ - الأعـراف: ١٥٧ - أى ليحطـم القيود والأغلال التى كانت تحول بين الإنسـان - مطلق الإنسان - وبين تحقيق أشواقه فى الحرية والانعتاق.

ولقد بدأ الإسـلام فوضع قيمة الحرية فى الممارسـة والتطبيق عندما حرر الإنسـان من أغلال الجاهلية وظلمها وظلماتها، وذلك بإعادة صياغة هذا الإنسـان الصياغة الإسـلامية التـى حـررت ملكاته وطاقاته حتى لقد أصبح «العالم الأكـبر» برغم أنه - ماديا - «جرم صغـير»! وتمت تربية «الجيـل القرآنى الفريد» ، الذى صنعه الرسـول - صلى الله عليه وسـلم - علـى عينه فى «دار الأرقم بـن أبى الأرقم» التى كانت أولى مؤسسـات الصناعة الثقيلة التى أقامها الإسلام لإعادة صياغة هذا الإنسان.. أى إن منهاج الإسلام فى الحرية والتحرير قد وضع «التربية» قبل «السياسة»، و«الأمة» قبل «الدولة» لأن «الأصول» لابد أن تسبق «الفروع».

ولقد عبر الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب (٨ هـ ٦٢٩م) عن حقيقة هذا التحرير الذى صنعته التربية الإسلامية للإنسان، وكيف أخرجته هذه التربية من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، مفجرة فيه الملكات والطاقات الدفينة، فقال للنجاشى - ملك الحبشة - عن سبب اضطهاد الوثنية القرشية للمسلمين، وسبب هجرتهم من مكة إلى الحبشة - (سنة خمس من البعثة) - فقال للنجاشى:

«أيهـا الملـك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونـأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسـىء الجوار، ويأكل القـوى منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ماكنـا نعبد نحن وآباؤنا مـن دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنـا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشـرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام». (٥٠: ج ٤، ص ٣٢٤)

وعندما تمت التربية الإسلامية التى حررت هذا الجيل القرآنى الفريد، جاءت «الدولة» ومؤسسـاتها وجاءت «السياسـة» وقوانينها، وجاءت «الفتوحات» التى حررت الشرق من قهر الفرس والرومان - القهر السياسـى والاجتماعـى والاقتصادى والدينى والثقافى الذى

دام عشرة قرون - وذلك عندما فتح هذا الجيل القرآنى الفريد - فى ثمانين عاما - أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون! ، وشتان بين فتح وفتح.. شتان بين فتح حرر الضمائر والأوطان ثم ترك الناس أحرارا وما يدينون؛ حتى إن نسبة الذين أسلموا فى مصر وسوريا وفارس بعد قرن من الفتوحات الإسلامية كانت ١٠٪ من السكان !.. (٥١: ص٢٥)

شتان بين هذا الفتح التحريرى وبين الفتح الرومانى الذى حول كل شعوب المستعمرات إلى برابرة ورقيق وأقنان!

ولأن خطاب التحرير الإسلامى إنما هو موجه للإنسان، مطلق الإنسان - بصرف النظر عن دينه ولونه وجنسه - فلقد بدأت السياسة الخارجية لدولة النبوة سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨م بالرسائل التى دعا فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تحرير المضطهدين والمستضعفين.. فهذا التحرير للمستضعفين - بصرف النظر عن دينهم - هو فريضة إسلامية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ النساء: ٧٥، هذه الفريضة قد حملتها رسائل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القياصرة والأكاسرة والملوك والرؤساء.. فدعا رسول الله قيصر الروم «هرقل» (٦١٠-٦٤١م) إلى تحرير «الأريسيين» - النصارى الموحدين- الذين كانوا مضطهدين فى دولة الرومان وقال له: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين»..

وفى اللقاء بين رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاطب بن أبى بلتعة (٣٥ق هـ ٣٠هـ ٥٨٦-٦٥٠م) وبين المقوقس - عظيم القبط - حذر حاطب المقوقس من الاستبداد وعواقبه، ومن الفرعونية ومصيرها، فقال له: «إنه قد كان قبلك رجل - (فرعون موسى) - زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك».. ثم أعلن له أن الإسلام لا يريد إلغاء الآخر، بل الإضافة إلى ما لدى «الآخر»، فقال: «إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به». (٥٢: ص٤٦)

● فلما جاءت الفتوحات الإسلامية، التى طوت صفحات القوى المتجبرة - الفرس والروم - كانت تجسيدا لهذه القيم فى الحرية والتحرير.. فكانت كل معاركها ضد جيوش

الفرس والروم.. ووقفت معها وساعدتها وناصرتها شعوب الشرق – وهى على دياناتها القديمة – عندما رأت فيها «الإنقاذ» الذى حررها من الظلم، وحقق لها «الأمن والطمأنينة» – على حد تعبير البطرك المصرى «بنيامين» (٣٩هـ ٦٥٩م «الذى حرره عمرو بن العاص» (٥٠ق هـ – ٤٣هـ ٥٧٤ – ٦٦٤م) من النفى والاضطهاد.

ولقد امتلأت كتب التاريخ التى أرّخت لهذا التحرير الإسلامى بالشهادات التى كتبها غير المسلمين، والتى تقطع بأن هذه الفتوحات الإسلامية قد وضعت قيمة الحرية هذه فى الممارسة والتطبيق..

فنقل الأسقف المصرى «يوحنا النقيوسى» – الذى كان شاهد عيان على الفتح الإسلامى لمصر– فرح الشعب المصرى بالفتح الذى حرر الضمائر والوطن والكنائس والأديرة والبطرك.. فقال:

«كان كل الناس يقولون: إن انتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين، وأن عمرو بن العاص لم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام» كما نقل – «النقيوسى» – كلمات البطرك «بنيامين» الذى حرره الفتح الإسلامى، ورد إليه كنائسه وأديرته، وأعاده إلى منصبه – بعد عزل البطرك الرومانى –.. فلقد زار «بنيامين» كنائسه، وخطب فى «دير مقاريوس» وقال: « لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهاد والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون» الرومان..(٥٣: ص ٢٠١، ٢٢٠)

وبعد خمسة قرون من الفتح الإسلامى، أكد هذه الحقيقة البطرك السريانى «ميخائيل الأكبر» (١١٢٦ – ١١٩٩م) الذى قال:

«..لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام» (٥٤: ص٦٢)

وفى العصر الحديث شهد المؤرخ القبطى «يعقوب نخلة روفيلة» (١٨٤٧ – ١٩٠٥م) «بأن الفتح الإسلامى قد حقق للشعب القبطى نوعا من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية وحقق لهم راحة لم يروها من أزمان» (٥٥: ص٥٧)

• كذلك حمل الفاتحون المسـلمون قيمة الحريـة والتحرير هذه إلى بلاد الفرس، الذين كانوا يعيشون فى ظل كهانة الحكم بالحق الإلهى، ويقهرهم نظام طبقى مغلق يقتل الملكات والطاقات لدى جماهير المسـتضعفين.. ففى لقاء القائد المسـلم «ربعى بن عامر التميمى» مع القائد الفارسى «رستم» سأل «رستم» «ربعى»:

– ما الذى جاء بكم؟!

– فقال له «ربعى»: «إن الله جاء بنا لنخرج من شـاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» (٥٦: ج٣، ص٥٢٠)

• أما المؤرخ الإنجليزى الحجة «سير.توماس أرنولد» (١٨٦٤ –١٩٣٠م) فلقد شهد على هذا التحرير الذى حققه الإسـلام للشرق، فقال: «إنه من الحق أن نقول، إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسـلامى بدرجة من التسـامح لا نجد لها معادلا فى أوربا قبل الأزمنة الحديثة» (٥٧: ص٤٦١)

لكن.. إذا كان هذا هو مقام الحرية فى الإسلام، وتلك هى تطبيقاتها فى أرض الواقع.. فلماذا وكيف سـاد الاسـتبداد «الدولة» الإسـلامية، لفترات طويلة من التاريخ؟!.. حتى اضطرت «الأمة» إلى الثورات التى غطت أغلب مساحات هذا التاريخ؟!

• إن الجيـل القرآنى الفريد، الذى أقام الدين وأسـس الدولـة، وفتح الفتوح، ووضع قيم الإسـلام فى الحرية بالممارسـة والتطبيق قد تحول إلى أقلية فى الدولة الإسـلامية بعد الفتوحات التى أدخلت فى المجتمع الإسـلامى شـعوبا وقبائل وعادات وتقاليد ومواريث لم تتح لها سـرعة الفتوحات التربية وإعادة الصياغة للإنسان، فأصبحت الغلبة فى الدولة الإسـلامية لعادات وتقاليد ومواريث وقيم عاشـت طويلا وترسخت فى ظل استبداد الفرس والرومـان.. ويكفـى لتقريب الصورة أن نعرف أن تعداد شـبه الجزيرة العربية يومئذ كان حول المليون.. بينما ضمت الدولة الإسـلامية – على نحو سـريع – قرابة الأربعين مليونا من السكان!.. فاختل التوازن بين الجيل الذى صاغه الإسلام وبين الملايين التى أدخلتها الفتوحات السريعة إلى «معدة» المجتمع الإسلامى..

ولقد كان عمر بن الخطاب واعيا بمخاطر هذا «الوافد السـلبى» – الذى يمتلك إغراءات الـترف وغوايـات الرفاهية التى تتمتع بها فضاءات هذه البلاد المفتوحة، على النقيض من البسـاطة والخشـونة التى عاش فى ظلالها الجيل القرآنى الفريد – فحاول عمر الاحتفاظ

بنقاء هذا الجيل القرآنى «قوة ضاربة» للإسلام وحافظة لقيمه ومثله العليا..حتى لقد ذهب إلى حد محاولة «الحجر» على ملأ قريش وإشـرافها الخروج إلى مجتمعات البلاد المفتوحة، ففرض ما يمكن أن يعد «تحديد الإقامة» لهم بالحجاز كى لا تجتذبهم إغراءات المجتمعات الغنية، فتقوم من حولهم «مراكز قوى» تنتصر لمنظومة القيم الموروثة التى لم تخضع لتهذيب الإسلام..

ويرصـد التاريخ - بعبقريـة - هذه الحقيقة التى مثلت تحولا عن نقاء النموذج القيمى الإسلامى، لحساب المواريث التى ترسخت فى ظلال الترف والاستبداد، فيقول:

«وكان عمـر قـد حجر على أعلام قريش مـن المهاجرين الخروج فـى البلدان إلا بإذن وأجـل.. فلمـا ولى عثمان (٤٧ق هـ - ٣٥هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م) لم يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد، فلما نزلوها، ورأوا الدنيا، ورآهم الناس.. وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا فى ملكهم حظوة. فكان ذلك أول وهن على الإسـلام، وأول فتنة كانت فى العامة.. ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر».(٥٨: ج١١، ص١٣، ١٢)

● وكثمـرة من ثمرات هـذا التحول الاجتماعى، شـهدنا كيف جـاءت عوامل الفتنة ووقائعها ورموزها من المجتمعات التى أدخلتها الفتوحات السريعة فى دولة الإسلام، دون أن تتاح لها الفرصة للتهذيب بمنهاج الإسلام فى إعادة صياغة الإنسان بقيم الإسلام..

- لقد جاء اغتيال عمر من فارس، بمؤامرة نفذها أبو لؤلؤة المجوسى.
- وجاءت الثورة على عثمان بن عفان من مصر والعراق..
- وجاء الملك العضود من الشام..

وهكـذا، رويـدا رويدا، تراجعت الحرية والشـورى عن «الدولة والسـلطة». بينما ظل العلماء الذين ورثوا ميراث النبوة فى أحضان الأمة، يصنعون الحضارة وتتوالى ثوراتهم ضد الاستبداد والاستعباد..

● فلمـا ظهرت متناقضـات العصبية العرقية - التى كان الإسـلام قد هذبها فى عهد النبـوة، ووصفهـا ووصمها «بالجاهلية.. والمنتنة» - لما ظهرت هـذه العصبية العرقية بين شـعوبية الفرس وعصبية العرب، وعلت العصبية العربيـة فى ظل الدولة الأموية، ثم علا شـأن الشـعوبية الفارسـية فى العقود الأولى من الحكم العباسـى، خيل للخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ ٨٣٣ - ٨٤٣م) أن عزل الفريقين - العرب والفرس - عن جيش

الدولــة يمكن أن يكون ســبيلا لحفظ وحدتها، وتحجيم النفوذ السياســى لهذه العصبيات العرقية ، فاســتجلب المماليك من أواســط آســيا، وكون منهم جيــش الدولة، وجعل لهم معســكر فى «سامراء» – بالقرب من بغداد– لكن هذه المؤسسة العسكرية، الغريبة عن روح الحضارة العربية والقيم الإســلامية، ســرعان ما تضخمت وتحولت من أداة فى يد الخلافة إلى حيث أصبحت الخلافة لعبة فى يدها حتى لقد أصبحت «سامراء» هى العاصمة بدلا من «بغداد»!.. وهكذا زحفت العسكرة على المجتمع، وغالبت عوامل «القوة» والجمود والتقليد قيم الإبداع والاجتهاد والتجديد.. فبدأ التراجع الحضارى يأخذ طريقه إلى الفضاء الإسلامى بالتدريج وعن هذا التحول السلبى – والرئيسى – يقول الإمام محمد عبده:

«كان الإســلام دينا عربيا، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا، حتى سيطر الترك والديلم وغيرهم ممن لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذبه الدين، بل جاؤوا إلى الإســلام بخشــونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، فلبسوا ثوبه على أبدانهم، ولم ينفذ منه شــىء إلى وجدانهم، فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم. أمــا العلم فلم يحفلــوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملوا كثــيرا من أعوانهم على أن يندرجوا فى ســلك العلماء، وأن يتسربلوا بسرابيلهم، ليعدوا من قبيلهم، ثم ليضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم، ويبعد بنفوسهم عن طلبه، ودخلوا عليهم– وهم أغرار– من باب التقوى وحماية الدين، وزعموا أن الدين ناقصا ليكملوه.. فاستعاروا للإسلام ماهو منه براء، ونجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره، والغوغاء عون الغاشــم، وهم يد الظالم، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات، وســنوا لنا عبــادة الأولياء والعلماء والمتشــبهين بهم مما فرق الجماعة وأوقع الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى توقف الفكر وتجمدت العقول ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأن لا نظر لهم فى الشئون العامة، وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة هو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن مايظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان، وإنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا أمل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه، ووجدوا

فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث مايعينهم على ذلك، وفى بعض الأحاديث الموضوعة والضعيفة ماشد أزرهم فى بث هذه الأوهام.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم وغلا للأيدى عن العمل. والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى، وهى أمور إذا اجتمعت أهلكت فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم.

هذه السياسة هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات.. هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا» (٥٩: ص٣١٧ - ٣١٩)

هكذا حلل الإمام محمد عبده - بعبقرية حضارية - دور عسكرة الدولة التى سرت سلبياتها إلى المجتمع، ودور العجمة التى ميزت هذه العسكرة فى إحلال الجمود والتقليد والخرافة محل المعالم الحضارية التى ميزت منظومة القيم الحضارية التى جاء بها الإسلام، والتى صاغت الجيل القرآنى الفريد فى صدر الإسلام.

«فلما جاء الإمام الشهيد حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) - وهو تلميذ نجيب للإمام محمد عبده - وأخذ فى تشخيص عوامل التحلل والتراجع الحضارى فى التاريخ الإسلامى، تبنى ذات التحليل وكتب يقول: «إن من أهم عوامل التحلل فى الدولة الإسلامية.. انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن. لصعوبة إدراكهم لمعانيه» (٦٠:ص١٣٢، ١٣١)

فلما كانت المخاطر الخارجية - الصليبية - (٤٨٩ -٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م) والتترية (٦٥٦ - ٦٥٩هـ ١٢٥٨ - ١٢٦١م) التى هددت الوجود الإسلامى - مدت هذه المخاطر فى عمر «عسكرة الدولة».. فأصبحت الغلبة «لقوة العضلات» بدلا من «ملكات العقل والعقلانية».. وغدت الأرض إقطاعا للمماليك مقابل حمايتها من الصليبيين والتتار، وأصبحت الدولة قوة وقهر واستبداد تراجعت من فضائها قيم الحرية والشورى ومشاركة الأمة فى صناعة القرار.. وأخذ فقهاء السلاطين ينظرون ويبررون لحكم التغلب، ويدعون لطاعة أهل الفسق والفجور طالما تغلبوا بالقوة على البلاد والعباد!.

تلك إشـارات لمقام الحرية فى الإسلام.. ولأسباب صعودها وازدهارها.. ولبعض أسباب تراجعها عن فضاء «الدولة والسلطة والسلطان»..

وهى إشارات ترسم معالم الطريق نحو استعادة هذه الحرية من جديد.. إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

- إعادة صياغة الإنسان بقيم الحرية التى جاء بها الإسلام.

- والبدء بالصناعة الثقيلة: التربية قبل السياسـة.. والأمة قبل الدولة- لتأتى «الدولة الحـرة» ثمرة ناضجة وطبيعية «للأمة الحرة».. وليتحقق شـعار: «كما تكونوا يولى عليكم» بدلا من الشعار القائم الآن: «كما يولى عليكم تكونوا»!.

بهـذه الصفحات - التى قدمت هـذه الحقائق - نقدم لكتاب متميز.. وممتاز.. ينتصر لأولويـة الحرية فى ترتيب فقه أولويات العصر الذى نعيـش فيه.. ويتخذ موقفا متوازنا، عندما يسلط الأضواء على الاستبداد الذى طبع «الدولة» - فى تاريخنا- لعدة قرون.. وفى الوقت ذاته ينصف «الأمة» التى بنت الحضارة وفجرت الثورات ضد هذا الاسـتبداد على امتداد هذه القرون سـاعيا - بذلك - إلى تذكير الأمة بمنهاج الإسـلام فى تحرير الإنسـان - مطلق الإنسان..

والله نسأل أن ينفع به، وأن يجزى كاتبه خير الجزاء.. وإنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب..

١٠ رمضان ١٤٣٣هـ
٢٩ يوليو ٢٠١٢ م

دكتور
محمد عمارة

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد.

هذه خواطر عَنّت على الذهن من معايشة الواقع منذ ستينيات القرن الماضى مع متابعة عن قرب للحركة القوميّة العربيّة والحركة الوطنيّة الفلسطينيّة والحركة الإسلاميّة، وكُتِب أغلبها من الذاكرة، وفى شقّها التاريخىّ لم تكن تأريخا، بل زبدة العبرة التى فهمها الكاتب من قراءاته، والمنحى النقدىّ هو السّائد فيها، كما أرفقنا ملاحق تاريخيّة ظانين أنّها تمثل عيّنة نموذجية لما كان عليه الحال عند العرب وغيرهم من المسلمين فى مفاصل هامّة من تاريخهم.

والكاتب؛ عندما استعرض مجمل خواطره وجدها احتفت وركّزت على محاور رئيسة تناثرت فيها كاملة وهى:

١ – يرى الكاتب أنّ نظام الحكم الذى صنعه الاستبداد هو السبب الرئيس لما أصاب أمّة العرب والمسلمين من ضعف بعد قوة وجهل بعد علم وذلّ بعد عزّ. ولذا كان للاستبداد ومؤسساته وأمراضه قسط وافر من هذه الخواطر.

٢ – كما أن مؤسسة الاستبداد وظّفت ما للدين من قدسيّة، واستعملت ذلك لمدّ أجل الظلم والاستئثار. ومن ثمّ ظهر أدعياء سوّغوا للمستبدّين أفعالهم، وكذا عاثوا فسادا فى عقول العامّة باسم الدّين، وهو من ذلك براء.

٣ – فى مناخ الاستبداد الذى ساد جلّ تاريخ المسلمين. قام الحكام بترويج المفاهيم المخدّرة وحجب إنتاج الفكر الإسلامىّ الحقّ، ومن ثمّ وجدنا أنفسنا عند دخول المستعمر الأجنبى لبلادنا وبعد ذهابه كأننا خرجنا من كهف، كلّ ما فى العصر غريب علينا.

٤ – الإسلام – رسالة الحرية والرّحمة والعزّة والكرامة – هو الذى أعاد بناء أمّة العرب وأنشأها إنشاءً جديدا فريدا. وحدّها ولغتها وفكرها ونظرها ومقاييسها فى الصّواب والخطأ، والإسلام بطبيعة رسالته الخاتمة الخالدة لا يُفصّل ما كانت ظروف الزمان

والمـكان من محدداته، بل يضع لذلك القيـــم والمعايير العامّة، ثم يطلب من النّاس بعلمهم وحكمتهم القيام بالتّفصيل الذى يناسب زمانهم، كما يطلب الإحسان فى الأمر كلّه.

والإحســان فــى علم الاجتماع البشــرىّ ارتقاء دائم بعلــوم إدارة المجتمع على الصلاح والخير. وذلك يســبقه لزاما فكر وعلم يؤديان إليه ثم العمل بما ثبتت جدواه. وكل ذلك – الفكر والعمل – موضوعه فى حمى الحاكم ومساحة سلطانه، فإنْ أغلق المستبدّ الطرق على إنتاج الفكر والعلم فى إدارة المجتمع ومن ثم العمل بهما كان المصاب فادحا! إذ تفقد الأمّة مرشــدها بل عقلها الاجتماعى رويدا رويدا! وهذا عين ما أصاب العرب والمســلمين عموما، إذ أصبحوا فى أوائل القرن العشرين فى آخر الأمم بعد أن كانت لهم قيادة الحضارة لقرون خلت. ومن ثم ركّزت الخواطر على دور الفكر ومدخله العتيد «الحريّة» فى نهضة الأمّة.

كما أن جلاء الحقّ فى هذا وتســمية الأشــياء بأسمائها وإلحاق الأعمال بمقترفيها فضلا عن أنّه العدل الذى أمر به الله سبحانه وتعالى، هو إنصاف لدين الإسلام من أن يوصم بأنه السبب لانحدار المسلمين وتخلفهم. ولقد رُمىَ الإسلام – ظلما – بذلك من معظم المستشرقين و من بعض أبنائه! وكل ذلك ســببه إصرار بعضنا على القول إنّ تاريخنا السياســى يعكس حقيقة ديننا، كما أنّنا فى هذا الكتاب نتعامل مع التاريخ السياســىّ ليس إلا. ولا نتعرض لتاريــخ الثقافــة والعلــم إلا نادرا وقد كانت مشــرقة أيام الازدهار ثم تدهورت مع ترســخ الاســتبداد وفساد السياســة. ونعتقد أنّنا بهذا البيان نعظّم الإســلام وننصفه من المتقّولين. إذ إنّنــا نقول: لقد بنى الإســلام الحقّ الحضارة وفتح الفتوح وقاد البشــرية لعشــرة قرون وذلك بعمل المخلصين من المؤمنين والمسلمين ومن أعانهم من مواطنيهم وذلك برغم معوقات الاستبداد ومؤسساته. كما نقول: ثم دار الزّمان و استفحل داء الطّغيان والاستبداد وتغّول، وفشت أمراضه فى جسم المجتمع الإسلامى إلى أن قسمته وفرّقته وأنشأت فيه التنازع فكان ما كان من تبدد الحضارة وذهاب الريح.

فأى الموقفين التّاليين أبرأ للإسلام وأحق أن يصرّح به؟

أن نقــول:– خلافــا لحقائق التّاريخ – إنّ تصرفات ولاتنا فى سياســة المجتمع كانت إســلامية على مرّ العصور، ونحن قدنا بالإســلام ثم تخلفنا – ولزاما أن نقول – بالإســلام أيضا! حيث كان معنا وكان دليلنا فى مؤسسة الحكم حسب زعمنا!

أم نقول – وهو الحق الذى نعتقده – إنّ تاريخنا بدأ بالإسلام حكاما ومحكومين وبنى المسلمون فى ظل ذلك الحضارة وحققوا الفتوح، ثم فارق السلطان القرآن واعتنق الاستبداد والاستئثار، فأصبحت سياسة الحكم خصما من طاقة الشعب إلى أن انقلب الميزان وبدأ التآكل ووصلنا إلى ما نحن عليه. والجواب بيّن جلى!

كما أن الله سبحانه وتعالى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أجلّ العبادات وأعظم القربات كما قال رسول الله ﷺ: «احثوا فى وجوه المدّاحين التراب» وفى الأمرين معنى عظيم من هدى رسالة الإسلام... رسالة الإعمار والصعود والسير إلى الأمام وطلب الإحسان والمزيد منه على مر الزّمان.

فأمرت بالمزيد من العمل الصالح (المعروف) كما أمرت ببيان النواقص (المنكر – أى النقد) والحثّ على مغادرتها والإقلاع عنها.

كما نهت عن المدح والتشبيب بما تمّ تحقيقه إذ إنّ هدف الإسلام الدائم هو الزّيادة والنّماء فى الخير وليس الانشغال بتقريظ ما تم إنجازه..

٥ – الله سبحانه وتعالى كرّم آدم وأسجد له الملائكة بفطرة الحرّيّة التى وهبها إياه إذ تساءلت الملائكة: كيف يترك لهذا المخلوق الجديد حرّيّة الخيار ومن ثمّ القدرة على الإفساد وسفك الدّماء؟! فلم ينكر الله سبحانه وتعالى عليهم ما قالوا، بل بيّن لهم أن ما تساءلوا عنه فى شأن الحرّيّة وقضية الإفساد يقابله هداية من السماء، ولكنّ الأهم من ذلك هو ما وهب الله آدم من علم بالإمكان «الأسماء كلها» وبالحرّيّة سوف يكشفه بنوه بالفعل، وذلك هو سرّ كرامة هذا المخلوق الجديد «الحرّ» القادر على هذا وذاك ومن ثمّ احتفت هذه الخواطر بقضية الحرّيّة التى ينبغى لها أن تكون أول الضرورات إذ بها فقط يتكوّنُ معنى للتكليف واعتناق الدّين والتدين به.

٦ – نعت هذه الخواطر فى كثير من المواضع على قلة العناية بدراسة التاريخ، واستيعاب عبره، وفيه سجل كامل لحركة الأمّة، أين وكيف حققت نصرا، ولم حدث غيره، ولمَ وكيف انحدرت إلى حالها الرّاهن؟ كما فيه سِيَرُ الأمم الأخرى. والقرآن الكريم ثلثه قصص للاعتبار بما كان.

٧ – كما ركّزت الخواطر فى أجزاء منها على شمول الإسلام، وأنّ كُلّ عدل وصواب وحكمة وعلم صحيح، هو من الإسلام، دون النظر إلى مصدر ذلك أو قائله.

وأنّ الإسـلام فى جوهره دعوة الرحمة للعالمين وكلّ أمر جلّ أو دقّ فى حركة المسـلمين أفرادا أو مجتمعات لا بدّ أن يقيسوا النجاح فيه بمدى توفيقهم فى إيصال الرحمة وجلائها لأكبر عدد من الناس ومن ثمّ تحقيق معنى الشهادة عليهم (لتكونوا شهداء على الناس).

٨ – كما ركّزت الخواطر على معنى الانفتاح الفكرى وضرورة التثاقف المعرفى بين المسلمين وغيرهـم دون حدود، وينبغى أن يكون المسـلمون – حملة الدّعوة الخاتمة – أحرص الأمم على ذلك.

والمسـلم لديه الهـدى الخاتم المحكم المهيمن على غيره وهـو داعية لذلك بأمر من الله ولا خوف عليه إن فقه.

كما أن وسـائل العصر وانتشـار العلم والنظر تقتضى الأخذ بكل المستويات فى الدعوة، من أبسـطها بين عامّة النّاس إلى أعلاها حوارا مع أسـاطين المفكرين والعلماء فى الاجتماع و الطبيعة.

ونرى – أيضا – أنّ التشـديد والتخويف من الغزو الثقافى والمبالغة فى ذلك أضر الأمّة أكثر مما نفعها لأسباب!

أولا: حجب كثيرا من أذكيائها عن متابعة علوم العصر وبالذّات علوم الإنسان والمجتمع، وكذا استيعاب تلك العلوم، ثمّ نقدها وفرز الصالح من الطّالح فيها.

وثانيـا: وفـى مناخ الفراغ الفكرى فى مجال تلـك العلوم – بل فى كل مجال – وبعد قرون التخلف والقعود عن العلم – كان ذلك إشـارة من طرف خفى إلى التقاعس عن إنتاج فكر جديد يناسب العصر ويستظلّ بالقيم الإسلامية.

وعليـه شـجع هذا المنحى الرّجوع إلى أفكار الغابريـن ومحاولة إحيائها وإحياء الجدل حولها من جديد، والزّعم أنّ ذلك هو الأصالة واستقلال الفكر والبعد عن «رجس» الآخر.

وكلّ ذلك فى سياق لا معنى له! فتلك الأفكار التراثية أنتِجت – فى معظمها– فى ظلّ الاستبداد!

فهى لا تصلح – ابتداءً – فى إدارة المجتمعات السالفة التى أُنتِجت لها!

كما أنّ ما صلح منها لم يعد كذلك بفعل تغير الظروف والزمان.

٩ – كمـا حـوت هذه الخواطر مقتطفات من معالم الحركة السياسـيّة العربيّة خلال القرن العشـرين، وكذا بعض المرتكزات لتأسـيس فكر سياسـى جديد قائم على عبر الماضى ومعطيات العلم.

وفيما يلى نشير إلى ما حوته فصول الكتاب:

الباب الأول: تعريفات

في الفصول (١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥)،(٦) تعريف للمصطلحات التالية: العرب - الأمّة - الاستبداد - مؤسسة الاستبداد - القبيلة - الشّعب - علوم الدّين - علوم الوسائل - عبادة الذكر - عبادة العمل..

الباب الثاني: تمهيد

الفصل (٧): لمحة عن التاريخ القديم:

يبيّن أنّ موطن العرب يتطابق تقريبا مع خارطة الوطن العربيّ الحاليّ ومنذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وأنّهم أصحاب الحضارات الأولى في تاريخ البشرية.

الفصل (٨): لمحة تاريخيّة في رسالة الإسلام.

يبيّن البيئة السائدة قبل الرسالة وحاجة البشريّة لها في وقتها وما صنعته من أثر على عرب الجزيرة.

الفصل (٩): في الصّدر الأوّل:

يحوي لمحة عن عهد الراشدين.

الفصل (١٠): ما بعد الصّدر الأوّل:

استعراض عام لبعض عبر التاريخ يبيّن أنّ الحضارة والفتوح هما إنجاز العلماء والمجاهدين والعبّاد والزّهاد وليسا إنجازا لمؤسسة الحكم التي كانت في معظم الحالات خصما من جهود باني الحضارة والفاتحين.

الباب الثالث: في التاريخ

الفصل (١١): محاور هامّة: تقديم لما بعده.

الفصل (١٢): عهد النبوة:

يستعرض بعض العبر من هدى الرسالة الخاتمة.

الفصل (١٣): الخلافة الرّاشدة:

يبيّن بعض سمات الخلافة الرّاشدة.

الفصل (١٤): الاستبداد وأمراضه، عهد بني أميّة نموذجا:

حيث تحول الأمر إلى مُلك، يبيّن الفصل ما أصاب المجتمع الإسلامي في ذلك العهد.

الفصل (١٥): وبعد الدّولة الأمويّة:
يبيّن حال المجتمع الإسلاميّ فى عهد بنى العباس ومن جاء بعدهم.
وأرفقنا ملاحق تاريخية مأخوذة من كتب التّاريخ تبين بعضا من أحوال الأمصار الإسلامية فى العهود المختلفة لنقرّب التّاريخ السياسيّ للمسلمين من القارئ المشغول وغير المتخصص.

الباب الرابع: فى الاستبداد ومؤسسته وأمراضه

الفصل (١٦): فى الأسباب والنتائج:
يبين الأثر التبادلى الجدلى بين الأسباب والنتائج قصد استعمال ذلك المبدأ فى حالة الاستبداد وأمراضه وديناميته التدميرية.
الفصل (١٧): الاستبداد هو أصل الداء، لماذا ؟
يبين كيف أن الاستبداد هو الجذر المغذى لكل أسقام المجتمع.
الفصل (١٨): الاستبداد طاعون الأمم:
هذا الفصل يبين الأمراض التى ينشرها الاستبداد فى المجتمع إذا تكرس وطال به الأمد.
الفصل (١٩): أين موقع الاستبداد فى خضم الأسباب الأخرى؟
يبين الفصل تكرارا – برغم تشابك الأمراض والأسباب – فإن الاستبداد هو جذرها وسيدها جميعا..
الفصل (٢٠): حركات الإصلاح والمناخ الطارد:
يبين أن المجتمع المُبتلَى بالاستبداد يصبح مشوها طاردا لمفاهيم الإصلاح وحركات التجديد.
الفصل (٢١): بيّن حكم الفرد والشورى والديمقراطية :
ينعى عجزنا عن استيعاب العبر من إخفاقاتنا ولعثمتنا الفكرية فى السياسة إلى الآن.
الفصل(٢٢): الأمة بين قوتين:
يبين أن الأمة العربية عبر تاريخها تنازعتها قوتان هما:
قوة الإيجاب أى نور الرسالة ومفاعيلها فى النفوس.
قوة السلب أى الاستبداد ومؤسسته وأمراضه.
الفصل (٢٣): القبلية والشعوبية والطائفية:
يحاور الفصل القبيلة والقبلية والشعوبية والطائفية ومواقعها فى المجتمع واستغلال السلطة الاستبدادية للغرائز من خلالها.

الفصل (٢٤): الحرية هي الضرورة الأولى:

يبين على ضوء الوحي وعبر التاريخ وتجارب الأمة والأمم الأخرى محورية الحرية شرطا وطريقا للتقدم وإبداع العلم ومتانة الأخلاق، ومن ثم يرى أن الحرية ينبغي لها أن تكون الضرورة الأولى في المجتمع.

الفصل (٢٥): كمال الدين :

يبين الفصل وعلى ضوء الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة:٣) أن الكمال هو كمال هدى وليس كمال مواضيع مفصلة كلها في الكتاب، وأثر هذا الفهم في طلب العلم والعمل به.

الفصل (٢٦): في المنهاج:

يتعرض هذا الفصل لما يسمى بالثابت والمتغير في الإسلام ويزعم أن: لا متغير في الإسلام (المطلق المقدس) وأما المتغير فهو فكر المسلمين (النسبي غير المقدس) مع تطور ظروفهم.

كما يصنف العلوم ومناهجها والمشترك الإنساني فيها من غيره.

الفصل (٢٧): في تقليد الآباء:

محاولة لفهم أبعاد التقليد وأثره السيئ على الإبداع وكشف العلم الجديد.

الفصل (٢٨): في مقولة التاريخ الإسلامي المفترَى عليه.

بيان لهذه المقولة وأن النقد الموضوعي للتاريخ واستخلاص عبره- وذلك بمقياس القيم الإسلامية - واجب شرعي.

الفصل (٢٩) : معادن العقول :

يبين الفصل أنه لا يوجد أساس بيولوجي للعنصرية وأن الحرية والمجتمع الحر هما الوسيلة الوحيدة لكشف المواهب المنوعة للناشئين في صغرهم، وإلا ردمت تلك المواهب في مجتمع الفوضى والاستبداد، وهنا يظهر التفاوت بين مجتمع وآخر .

الفصل (٣٠) : في رحاب آية:

يبين هذا الفصل المعنى الأممي والمعرفي والمشترك الإنساني في الآية الكريمة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات١٣.

الفصل(٣١) : بين الفرد والمجتمع :

يناقش الفصل الفرد العربى فى مجتمعه منذ ما قبل الإسلام وحتى تغول الاستبداد على كليهما.

الفصل (٣٢): المستبد العادل:

يبين التناقض الجلى فى هذه العبارة إذ لا معنى لها فى النتيجة.

الفصل (٣٣): بين القبلية والتقليد:

يناقش العلاقة الجدلية بين القبلية وانتشار التقليد فى المجتمع والأثر المعوق لذلك فى تقدم الأمة.

الفصل (٣٤): الغيرة على الإسلام:

يبين أن الغيرة بالحق على دين الإسلام مُقَدَّمة على دفاع غير حقانى - إلا إنه منتشر - عن ذنوب أتباعه فى التاريخ.

الفصل (٣٥): من عجائب المجتمع الاستبدادى أنماط الغلو والغزو الفكرى:

يبين الفصل أن الغزو الفكرى له مصدران: أحدهما من خارج الحدود، والآخر إنتاج محلى يصنعه الاستبداد بمفاعيله وأمراضه.

الفصل (٣٦): حضارة الغرب والمأزق:

يبين كيف انطلقت حضارة الغرب فور أن ملكت شعوبه حريتها من قوتى الكنيسة واستبداد الملوك.

إلا إنها حضارة ينقصها الجناح القيمى المتمثل فى علوم الوحى.

الفصل (٣٧): بين نظريتين فى التربية والسياسة:

يبين الفصل موقفنا من التربية والسياسة فى ظل الاستبداد ومواقف الغرب من ذلك برغم ما هو شائع من أن ثقافة الغرب تؤله الإنسان.

الفصل (٣٨): الأولوية تغيير الفكر السياسى:

حيث إن جذر البلاء - فى نظرنا - هو الاستبداد السياسى إذ أفرز باقى المعوقات والآفات، عليه تكون الأولوية فى العلاج هى دحر الاستبداد بفكر الحرية والمجتمع الحر.

الفصل (٣٩): فى الغزو الثقافى:

نقر أن الأمم والشعوب ثقافات إلا أن المشترك الإنسانى هو أغلب الحركة والأصيل منها.

ومن ثم لا بد من إعادة النظر فى جو التخويف المفرط من غزو الأفكار، وضرورة الانفتاح علـــى ثقافات الأمم الصالح منها وغير ذلك،ونحن أمـــة دعوة والأولى بذلك، حيث موقعها الشاهدة على الناس.

الفصل (٤٠): مشكلة الأمة فكرية وليست فقهية:

يبين الفصل أن الأمة لديها ذخيرة فقهية منوعة وكبيرة وبرغم حاجتها لبعض التجديد، فإن عجزها الفكرى فى علوم الوسائل بشقيها الكونى الطبيعى والإنسانى الاجتماعى فادح وخطير، وهذه العلوم جلها يتحرك فى فضاء المباح الواسع بلا حدود.

الفصل (٤١): بين العلم والفكر والديمقراطية:

يبين أن حقائق العلم سيدة فى ذاتها ولا ديمقراطية فيها.

وأما الفكر أو العلم الخداج فهو مجال الديمقراطية وقول الأغلبية.

الفصـــل (٤٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ الرعد١١.

تحليــل لمعنـــى الآية الكريمة وأنها أمـــر ودعوة للأخذ بالأســـباب و الكف عن التواكل وانتظار الخوارق وإلقاء التبعة على الآخرين والاحتجاج بالقدر إن تصريحا أو ضمنا.

الفصل (٤٣): نداء إلى العقل :

نداء للكف عن التقليد دون تدبر واستخلاص للعبر من التاريخ، والسير إلى المستقبل بفكر مبتكر جديد وعقلنة الحياة بكل أركانها.

الفصل (٤٤): القتل:

كلام عن مصيبة القتل فى تاريخ المسلمين.

الفصل (٤٥): حق الفقير:

حوار مع حق الفقير على المجتمع كما تبينه الشـــريعة الإســـلامية وكذا تتطلبه المصلحة الاجتماعية وتمليه الأخوة الإنسانية (البنيان المرصوص)

الفصل (٤٦): الفصام:

يبين أننا بالإســـلام الحـــق بنينا الحضارة وحققنـــا الفتوحات، وبثقافـــة ركيكة مزيفة اســـتعملت شعار الإســـلام ســـتارا أوجدها الاســـتبداد تم تآكل الحضارة و إبادة آثارها فى النفوس.

الفصل (٤٧): العداء للعرب:

يتعقب هذا الفصل ظاهرة العداء للعرب منذ التاريخ القديم وأسـبابها ثم امتدادها حتى العصر الراهن.

الفصل (٤٨): المطلوب من التنمية – من يصل الخالة؟!

يحاور هذا الفصل ما أفضت إليه التنمية الاقتصادية المعاصرة والاستهلاك المصاحب لها من مفاسـد، حيث – وفى غياب الرؤية والهدف الأسمى والضابط الأخلاقى – تم تحويل الإنسان و محيطه إلى أرقام مادية فضمرت أسباب التراحم.

الفصل (٤٩): تطبيق الشريعة: يحاور الفصل هذا المفهوم وما أصابه من ضمور فى وعى الناس مع تخلف الفكر.

الباب السادس: ضرورة التغير والتغيير.

الفصل (٥٠): كلهم إسلاميون:

يبـين هذا الفصـل أن كل فكر إصلاحى خلا من مخالفة القطعيات الإسـلامية هو فكر إسـلامى صحيح دون النظر لقائله. ومن ثم لابـد من تحالف كل القوى الحية فى المجتمع العربى لمواجهة تنين التخلف، وتلك أولوية مجتمعنا دون منازع.

الفصل (٥١): أحوال القرن العشرين – القرن الذى بددناه :

يستعرض هذا الفصل – بإيجاز– التيارات السياسية التى ظهرت خلال القرن العشرين فـى الوطـن العربى مـع تعليق على كل منهـا وموقفها من قضية التخلـف. وشمل البيان التيارات: الإسلامى والقومى والليبرالى واليسارى.

الفصل (٥٢): نحو فكر جديد:

يبـين الفصل ما يراه الكاتب من أساسـيات لبناء فكر سياسـى جديـد وعناصره هى: الحرية – المرجعية الإسـلامية– الشـورى والمؤسسات الديمقراطية – العدالة الاجتماعية – التنميـة الأخلاقية والفكرية والعلمية والتقنية – التنمية الاقتصادية فى إطار من التقشـف والوظيفيـة – الوحـدة العربية والتضامن الإسـلامى – وفى العلاقات الدولية: السـلام – الانفتاح – سياسة الحق لا سياسة المصالح – الإغاثة والتنمية وفلسطين وقضيتها وتشمل: مناقشة الحق التاريخى والوعد الإلهى والوضع وفق القانون الدولى والوضع الراهن.

الباب السابع: الملاحق التاريخية:

الملحق الأول: الوضع الاجتماعي في الدولة العباسية ٣٢٠هـ – ٦٥٦هـ.

الملحق الثاني: عهد الإمارة في الدولة الأموية بالأندلس ١٣٨هـ – ٣٠٠هـ.

الملحق الثالث: في خلفاء صلاح الدين (مصر والشام) ٥٨٩هـ – ٦٤٨هـ.

الملحق الرابع: ما بين عهدي الأيوبيين والمماليك ٦٠٠هـ – ٦٥٦هـ.

الملحق الخامس: عن الحالة الإدارية في مصر والشام بعد احتلالها من العثمانيين مباشرة ١٥١٦م وما بعدها.

الملحق السادس: الحجاز والنزاع على الحكم في القرن الثاني عشر الهجري (١٠٨٣هـ–١٢٠٢هـ).

عن الاستشهاد بالمراجع:

١ – تمت كتابة رقم المرجع بين قوسين كمرجع مختار في الموضوع. مثلا: (١٥).

٢ – تمت كتابة رقم المرجع يليه رقم الصفحة التي تم الاقتباس منها. مثلا: (٣٩–ص٢١٦).

٣ – مراجع الملاحق التاريخية: تمت كتابتها كما وردت في النص الأصلي المأخوذ من المراجع رقم (١٩)،(٨)،(١٠).

أسأل الله العفو الغفور الرحيم أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون.

د.محمود زايد المصري

غرة ذي الحجة ١٤٣٢هـ
تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١